البرامج التعليمية عند الموحدين

د.بلقاسم فيلالي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص:

تبنت الدعوة الموحدية الدعوة إلى إصلاح التعليم وإحياء العلم، بما يتماشى مع مهمة المهدي المنتظر، الذي يحي العلم من منابعه الأصلية ويمحو الجهل، بفرض إجبارية التعليم ومجانيته على كل أتباع الدعوة دون استثناء، ودون مراعاة لفارق سن ولا لون ولا عرق، واستمر خلفاء الدولة الموحدية بعد ابن تومرت على تطبيق نفس البرنامج ولكنهم طوروه بما يتماشى مع إمكانيات الدولة الموحدية، فالخليفة عبد المؤمن بن علي اهتم بطلبة العلم وجمع الحفاظ من الأندلس والمغرب بعاصمته مراكش وسطر لهم برنامجا تعليميا خاصا، وجعل التعليم مهنة لأهل مملكته، بينما أحاط نفسه الخليفة بعده أبو يعقوب يوسف بالعلماء من مختلف مناطق الأندلس وبلاد المغرب، واهتم بالحركة العلمية وأنشأ مكتبة عظيمة بمراكش، كما أن الخليفة بعده أبو يوسف يعقوب المنصور اهتم هو الآخر بالحركة العلمية الناشئة في مملكته وواصل حركة إصلاح التعليم وإحياء منهج الاجتهاد وحارب الجمود والتقليد، ودعا إلى إحياء العمل بالكتاب والسنة، كما استمر خلفاء الدولة الموحدية على نفسح نهج الخلفاء الأوائل حتى في مرحلة ضعف وسقوط الدولة الموحدية.

Abstract

The Almohad Movement, started by Ibn Tumart in southern Morocco, brought a sophisticated culture and valuable knowledge of science and literacy. The Almohads showed an unusually high commitment to public education and pioneered the development of compulsory learning for ordinary people. Under the leadership of Abd al-Mumin bin Ali, who succeeded Ibn Tumart as head of the Almohads, Marrakech became the capital city of scholarship and large endowments were dedicated to meet

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

students' needs for food and drink. Further, the Caliph Abu Yakub Yusuf was known for his zeal for scholarship and succeeded in gathering around him a significant number of scholars. This article, therefore, argues that the Almohads' effort to foster learning is nothing short of impressive. Yet, the most controversial aspect of Almohadism is undoubtedly its recognition of Ibn Tumart as the "Mahdi" while also encouraging rational and reflective approaches to religion.

مقدمة:

يعتبر محمد المهدي بن تومرت مؤسس الدعوة الموحدية في بلاد المغرب، أحد العلماء المبرزين لإتقانه عدة تخصصات شرعية، وقد أحد ثورة تعليمية بين بني جنسه من البربر، حيث عرفه بشريعتهم الربانية وفسرها لهم بلغتهم المحلية، ثم درج على نهجه خلفائه من بعده، وخاصة عبد المؤمن بن علي وابنه أبي يعقوب يوسف وحفيده يعقوب المنصور، وعلى الرغم من دخول الدولة بعدهم في مرحلة الضعف، وبداية التخلي التدريجي عن مذهب ابن تومرت من طرف خلفائه المتأخرين، إلا أنهم لم يفرطوا نهائيا في التعليم وبرنامجه الذي وضعه ابن تومرت، بل حرصوا عليه رغم الظروف الصعبة والسيئة التي آلت إليها مختلف أوضاع دولتهم بعد هزيمة العقاب.

أ/ التعليم عبر مراحل الدعوة الموحدية

ا/ التعليم في طريق العودة من المشرق

منذ أن شرع ابن تومرت في عودته من الرحلة في طلب العلم التي قادته إلى المشرق، بدأ يروج لدعوته الجديدة ومشروعه الإصلاحي الذي دعا إليه عن طريق ممارسة التعليم بالتوازي مع الدعوة، ومنذ أن حل بالإسكندرية بدأ يمارس التعليم واستطاع أن يكون من تلاميذه أتباعا ينصرونه ويشايعون دعوته فقد ذكر في (عام[501هـ/ 1107م] عاهده فيها أهل التحقيق من العارفين به –رضه– وبايعوه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سر)[1]، حتى ذكر بعضهم أنّ تلاميذه المستجيبين له هناك (بلغ عددهم 51 رجلاً)[2]، وما إن حل ببلاد المغرب حتى أدرج في التعليم علم الكلام وجعله أولوية أولوياته؛ وكان أهل المغرب على طريقة السلف ينافرون الكلام وأهله[3]، مما تسبب له في متاعب جديدة مع العلماء الذين لا يسمحون بتدريسه، لذلك كلما دخل مدينة من بلاد المغرب؛ طلب علمائها من الحكام إخراجه منها؛ كي لا يفسد عقول النّاس كما يدّعون، ولكن هذا لم يؤثر في عزيمته بل زاده ذلك تمسكا بمشروعه (فما اجتاز ببلد إلاّ وغيّر فيه المنكر؛ ويظهر الزهد في الدنيا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدرس العلم)[4]، ولما نزل بالمهدية مارس التعليم بمساجدها (وتسامع به أهل البلد فقصدوه يقرؤون عليه أنواع العلوم)[5]، ولما وصل بجاية استقر برباط ملالة، بعد أن لقيا مشروعه التعليمي قبولا من أهلها فقالوا له: (يا فقيه نريد أن نبني لك مسجداً هنا)[6]، وهذا ما أتاح له فرصة الاستقرار النسبي فرغب طلبة العلم في الرحلة إليه للأخذ عنه، فلما

---

[1] – ابن القطان أبو محمد علي بن محمد بن عبد الملك بن يحي الكتامي: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي المكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،جمادى الآخرة 1410هـ/ يناير 1990م، ص62

[2] – حمدي عبد المنعم: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس، ص87

[3] – ابن العماد الحنبلي أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط دار بن كثير دمشق، 1406هـ ج4، ص71

[4] – ابن أبي دينار القيرواني أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، 1286هـ/ 1996م، بلا:تا، ص101

[5] – الزركشي: تاريخ الدولتين، ص04، وابن الخطيب: الحلل الموشية، ص106.

[6] – البيدق: أخبار المهدي، ص36

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تسامعوا بمكان وجوده (أقبل الطلبة يصلون إليه من كل مكان)[1]، وكان من بين من قصده عبد المؤمن بن علي خليفته من بعده.

بقي ابن تومرت يمارس التعليم ويعلم علم الكلام ويدعو إليه في كل مدينة يحط رحاله بها طيلة رحلة عودته كلها إلى غاية استقراره في جبل إيجليز.

ولما وصل ابن تومرت ودخل بلاد المصامدة بمن كان رفقته من طلبت العلم نزل على قبيلته (برباط هرغة؛ ببلد السوس سنة 515هـ/ 1121م)[2]، و(ارتقى الإمام المهدي جبل إيجليز أقام فيه ثلاثة أعوام)[3]، لم يكتف هذه المرة بما كان يقوم به من قبل في رحلته الطويلة من مناظرات وتعليم وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، بل بدأ في تطبيق منهج جديد أساسه الاستقرار والتمكين، ليبدأ عملية التنظيم والهيكلة وبناء المؤسسات ويتفرغ للتأليف، أساس بنيانه كله ووسيلته الأساسية هي التعليم في مؤسساته الجديدة.

وأول ما قام به؛ وبمجرد وصوله (شرع في بناء مسجد إيجليز)[4]، جاعلا منه مركزا يجتمع فيه بأتباعه، ويستقبل فيه الوفود، ولما أتته الوفود[5] من مختلف القبائل

---

(1) – المصدر نفسه، نفس الصفحة

(2) – ابن تومرت أبو عبد الله محمد المهدي بن عبد الله: أعز ما يطلب، تح: عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.، ص30

(3) – ابن القطان:نظم الجمان، ص133، ويسمى جبل درن الأعظم، وهو حصن منيع قليل مثله، والصعود إليه من مكان ضيق وعر المرتقى، محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار طبعة حجرية على يد علي بن محمد بن عثمان بن أحمد، بإعانة محمد الهادي باشا، صاحب المملكة التونسية، بتونس 1321هـ/ 1903م، ص11

(4) – ابن القطان: المصدر نفسه، ص135

(5) – المصدر نفسه، نفس الصفحة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتزايد عدد أتباعه باستمرار، شرع في (بناء رابطة للعبادة)[1] والجهاد، حتى يتسع المكان لكل من التحق بدعوته من القبائل على كثرتها، ويتسع كذلك لتدريب الجيش وإعداده، وصنف لهم عقيدةً بلسانهم، وعظم في أعينهم، وأحبته قلوبهم[2]، واجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري[3]، وصنف لهم تصانيف في العلم، منها كتاب سماه أعز ما يطلب، وعقائد على مذهب الأشعري في أكثر المسائل[4]، قال اليَسَع بن حزم: ألّف ابن تُومَرْت كتاب «القواعد»، وألّف لهم كتاب «الإمامة»، دوّن لهم ذلك كله باللسان العربيّ والبربريّ، فلمّا قرءوا هذين الكتابين زادهم ذلك شدَّةً في مذهبهم[5]، وقد اختار لذلك موضعاً حصينا (لأنّه مكان مكان لا يصل إليه أحد إلاّ من طريق لا يمشيها إلاّ راكب بعد راكب فيسد خللها أقل عصبة من النّاس)[6]، ومكنّه الاستقرار والأمن، من ممارسة أي نشاط يريده ولا يخشى يخشى مضايقة أحد، فأصبح يستقبل الطلبة والقبائل، ويعلمهم العلم الذي يريد؛ وعلى رأسه طبعاً علم الكلام، كما بدأ في الإعداد لمرحلة عسكرية افتتحها بتعليم

---

(1) – ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى العبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت، 1399هـ/ 1989م، ج6، ص227

(2) – الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1413هـ/ 1993م، (ج36/ 113)

(3) – تاريخ ابن خلدون (ج6/ 228)

(4) – الذهبي: تاريخ الإسلام (ج36/ 113)

(5) – المصدر نفسه، (ج36/ 119)

(6) – ابن القطان: نظم الجمان، ص142، وابن الخطيب لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد ذي الوزارتين: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1، 1329هـ/ 1911م، ص107

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحكام الجهاد، ثمّ التدريب على القتال وكل ما يتعلق به؛ من فنون القتال إلى العناية بالخيل ولوازمها، فيروي البيدق أنه قال لهم: (اعملوا أسراك[1] كبيراً، لأن الخيل تصلكم، ثمّ أمرنا ببناء المذاود[2]، وقال: من عمل مذودا أخذ فرساً ومن عمل اثنين أخذ اثنين)[3].

فاستقر بجبل إيجليز حوالي ثلاثة سنوات (من سنة خمس عشرة إلى سنة ثمانية عشرة(515-518هـ/ 1121-1124م)[4] وهو (يدرس العلم، ويهاجر إليه السعداء، ويعلم المهاجرين، ويخاطب القبائل[5])[6] ويدعوهم للاستجابة له والدخول والدخول في دعوته.

فأثمر مشروعه الدعوي هذا عن طريق التعليم على تأسيس كيان شبه متكامل، شغله الشاغل هو التعلم والتعليم، فليس هناك بطال بمصطلح ذلك العصر في الكيان الذي أسسه في هذا المكان المناسب، ولولا ما كان يعول عليه من التعليم لما استطاع أن يصل ويحقق هذه النتائج الباهرة في هذا الظرف الوجيز، فقد استطاع بمشروعه هذا أن يجعل من أولويات رعيته في هذا الكيان الجديد تحصيل العلم والرغبة في طلبه.

---

(1) – أسراك: حظيرة للخيل باللسان البربري، أنظر: عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2، 1986، ص63 الهامش

(2) – مذود: مكان يربط فيه حصان واحد ويوضع له فيه الكلأ والعلف، أنظر: المصدر نفسه، نفس الصفحة

(3) – المصدر نفسه، نفس الصفحة

(4) – ابن القطان: نظم الجمان، ص133

(5) – من ذلك رسالته إلى قبيلة كزولة، أنظر: أعز مايطلب، ص257، 264

(6) – المصدر نفسه، ص78

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اا/ التعليم بعد الاستقرار بتينملل[518-524 هـ/ 1124-1130م]:

بعد أن استقر ابن تومرت بتينملل واستجابت له الكثير من القبائل وجمع شملهم حوله، قام بتقسيمهم بإحكام إلى أجهزة، تعمل من أجل تحقيق الهدف بإتقان وإخلاص، ولا يستثنى من ذلك أحد ممن انضم إلى صفه؛ وانخرط في دعوته، معتمدا في ذلك علي القدرات الشخصية؛ والمواهب الخاصة لدى كل فرد أو قبيلة؛ على حدا (الصنف الأول العشرة[1] يعني أهل الجماعة، والثاني أهل خمسين، والثالث أهل سبعين[2]، والرابع الطلبة، والخامس الحفاظ وهم صغار الطلبة، والسادس أهل الدار، والسابع هرغة، والثامن أهل تينملل، والتاسع جدميوة، والعاشر جنفسية، والحادي عشر هنتاتة، والثاني عشر أهل القبائل، والثالث عشر الغرّات، وهم الأحداث الصغار الأميون)[3].

ولم ينسى أهم جهاز في ذلك وهو الجهاز العلمي الثقافي والذي يشتمل على طبقة الطلبة، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة[4]، ويتشكل هذا الجهاز من (الطلبة والحفاظ لحمل العلم والتلقي)[5] بالإضافة

---

(1) – أنظر أسماؤهم في: ابن القطان: نظم الجمان، ص125-128

(2) – أورد أسماء أهل خمسين، وشكك في أمر السبعين، المصدر نفسه، ص83-86

(3) – المصدر نفسه، ص82، ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص109

(4) – عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1403هـ/ 1983م، ص117

(5) – نفس المؤلف: تجربة التغيير في حركة المهدي بن تومرت، طبعة تونس، ط:1(1404هـ/ 1984م)، ص96

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالإضافة إلى مهام خاصة أنيطت بالطلبة وهي الدعاية لنشر المذهب الموحدي-مبشري الحركة[1] وتسهيل الطريق و(تهيئة الجو لتقبل الدعوة والدفاع عنها ونشرها)[2]، ووضع المهدي فيما بعد نظاماً خاصاً لمهام هذه الطبقات ورُتَبها، وجعل لكل منها مهمة تختص بها، ورتبة لا تتعداها، سواء في السفر أو الحضر، وشرع القتل جزاء لمن خالف الأوامر؛ ومن تخلف عن الحضور أدب، فإن تمادى قتل، ومن لم يحفظ حزبه عزر بالسياط، وكل من لم يتأدب بما أدب به، ضرب بالسوط مرة أو مرتين، فإن تمادى في تصرفه وترك امتثال الأوامر قتل، ومن داهن على أخيه أو أبيه أو ابنه أو من يكرم عليه قتل[3].

ب/ التعليم في مرحلة بناء الدولة الموحدية [524-558هـ/ 1130-1163م]

1/ إخفاء وفاة المهدي وإقامتهم على إحياء سنته في التعليم[524-527هـ/ 1130-1133م]:

لما مات المهدي كتموا موته فيما زعموا ثلاث سنين، يموهون عرضه ويقيمون سنته في الصلاة والحزب الراتب يدخل أصحابه إلى البيت كأنه اختصهم بعيادته فيجلسون حوالي قبره ويتفاوضون في شؤونهم ثم يخرجون لإنفاذ ما رموه ويتولاه عبد

---

(1) - ابن صاحب الصلاة عبد الملك[594هـ/ 1198م]: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، تح: عبد الهادي التازي، دار الأندلس بيروت، ص119 (الهامش)

(2) - محمد ولد داداه: مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع (دراسة في التاريخ السياسي)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط:1 1977م، ص144

(3) - عنان محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1411هـ/ 1990م، (ج3/ 174- 175)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المؤمن بتلقينهم[1]، فطيلة إخفاء وفاة المهدي ولمدة ثلاث سنوات والموحدين يسيرون بسيرته ويقتفون أثره في إقامة طريقته في التعليم وقراءة التوحيد والحزب الراتب لا يحيدوا عنها.

2/ جمع عبد المؤمن للعلماء ورجال العلم والتعليم من مختلف أنحاء البلاد:

كان عبد المؤمن بن علي محبا لأهل العلم يستدعيهم من البلاد ويجزل لهم الصلات وينوه بهم[2]، مؤثراً لهم، محباً لهم يستدعيهم من البلاد، ويجري عليهم الصلات وينوه بهم[3]، محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم، وكان مقبلا على مجالستهم محسناً إليهم، يستدعيهم إلى جواره، ولينتظموا في مجلسه، ويجري عليهم الأرزاق السخية، ويعظم من شأنهم ومكانتهم[4]، وقسم الطلبة طائفتين طلبة الموحدين وطلبة الحضر هذا بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين لتسمية ابن تومرت لهم بذلك[5].

---

[1] – تاريخ ابن خلدون (ج6/ 229)

[2] – صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي:الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، 1420ه/ 2000م، (ج19/ 156)

[3] – الذهبي: تاريخ الإسلام (38/ 259)

[4] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج3/ 402)

[5] – عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي محي الدين: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1، 1426هـ/ 2006م، (ص: 200-201)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد لبث عبد المؤمن بالرغم من غلبة الحرب والجهاد على حياته، محتفظاً بسمته وخلاله العلمية، فكان فقيهاً بارعاً حافظاً للسنة، وعالماً متمكناً من علوم الدين، ولاسيما علم الأصول الذي تلقاه عن المهدي ابن تومرت، وكان يتعاطى التعليم ويشرف عليه بنفسه، ويقوم بإملاء علوم المهدي وقراءة العقائد وكتاب الموطأ[1].

3/ تأديب عبد المؤمن لبنيه:

رتب عبد المؤمن لبنيه برنامج تأديبي وتعليمي خاص، فكان يطعمهم الطعام الحسن ويلبسهم مثل ما يلبس من الثياب، وكان يدربهم في الدين ويشتد عليهم فيه ويعلمهم الأذان، ويأخذهم بالرمي والعوم وركوب الخيل، والتدرب عليها مع الموحدين، وكان يأخذهم بحضور الصلوات الخمس في الجماعات، وبقراءة الحزب من القرآن إثر الصلاة، ويحضرون مع المؤذنين في الأسحار على ارتقاب الفجر والمنازل، وربما يمشون على أقدامهم، وإذا ولاهم البلاد بعث معهم أشياخ الموحدين ورجالهم العقلاء الخيار الفضلاء وزراء وأشياخا في الأحكام[2].

وقد دل على ثراء هذا البرنامج الذي وضعه عبد المؤمن لتأديب بنيه، ما كان يتمتع به ابنه والخليفة بعده من تكوين دقيق وواسع في شتى المعارف، وهو أول من تجسد تكوينه في هذا البرنامج التأديبي، فكان أبو يعقوب حافظاً للقرآن متمكناً من

(1) – عنان محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس (ج3/ 402)

(2) –ابن القطان: نظم الجمان، ص172

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحديث، حتى قيل إنه كان يحفظ صحيح البخاري، وكان في نفس الوقت بارعاً في الفقه[1].

4/ استدعاء الطلبة من مختلف الجهات إلى حضرة مراكش:

كان عبد المؤمن بن علي يعتني أشد العناية بأمر الطلبة والحفاظ، ويقسمهم إلى طائفتين: طلبة الموحدين وطلبة الحضر، والطائفة الأولى هي طلبة المصامدة[2]، لأجل خوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه[3]، واستقدم عبد المؤمن في نفس الوقت صغار الصبيان النجباء من مختلف قواعد المغرب والأندلس، من إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وغيرها إلى حضرته، وكان منهم من إشبيلية وحدها خمسون صبياً[4]، قال ابن القطان: ومن مكارمه...استدعاؤه الصبيان الصغار الأسنان من أبناء إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان إلى حضرته العلية، ليعلمهم ويحفظهم القرآن وحديث النبي-صلى الله عليه وسلم، فانتخب الأولاد النجباء الحفاظ من كل بلد، ووجهوا مُحَسَنا إليهم مزودين، فكان عدد الذين توجهوا من إشبيلية خمسين صبيا، فسافروا نحو الحضرة العلية مع الأستاذ أبي الحسن نجبة منجبهم، والأستاذ أبي بكر الحصار[5]، نهضوا في كفالتهما حتى وصلوا حضرة مراكش، فأنزلوا أكرم إنزال، وتلقاهم الوزير أبو جعفر بن

---

[1] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 135)

[2] – المرجع نفسه، نفس الجزء والصفحة

[3] – عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (ص:150)

[4] – عنان:المرجع السابق، (ج3/ 402)

[5] – ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف- القاهرة، 1955م، (ج1/ 284)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عطية...ثم أمروا بكتب التوحيد وحفظه، وكتب موطأ مالك وحفظه، ومسلم وحفظه، وأقاموا على ذلك تحت جراية واسعة وجباية بالغة، وأستاذاهم المذكوران معهم ستة أشهر، حتى بدا عليهم نور الإمامة، وتميزوا بالحفظ وامتازوا بالكرامة، ثم ولى الخليفة أبا يعقوب إشبيلية وقرطبة، فوجه معه الوزير أبا جعفر بن عطية، وبعث الصبيان الحفاظ معه إلى آبائهم، وقد نالوا من الخير ما نالوا، وانصرف الأستاذ أبو بكر الحصار معهم[1].

واعتنى عبد المؤمن بن علي بأمر الحفاظ أشد عناية، وأمر بأن يحفظوا كتابي الموطأ، وأعز ما يطلب، وغيرهما من آثار المهدي، وكان يستدعيهم في كل يوم جمعة إلى داخل القصر، فجمع ثلاث آلاف ولد كأنهم أبناء ليلة واحدة جمعهم من المصادمة وغيرهم، وأخذهم بحفظ كتاب الله وحفظ الموطأ وكتاب ابن تومرت ورباهم على ركوب الخيل والرمي والسباحة ببحيرة صنعها خارج بستانه بمراكش، وكانت نفقتهم وخيلهم من عنده[2]، وهم نحو ثلاثة آلاف حافظ[3]، فيوجههم إلى ما يبغيه من سرعة الحفظ والتدريب، فيأخذهم يوماً بتعلم الركوب، ويوماً بالرمي بالقسى، ويوماً بالسباحة في بحيرة أنشأها لهم خارج بستانه في مربع ضلعه نحو ثلاثمائة ذراع، ويوماً بالتدرب على إصابة الهدف على قوار وخوازيق صنعها لهم بتلك البحيرة، وذلك لكي يجعل منهم رجالا مثقفين مدربين مقتدرين، وكانت نفقتهم وسائر مؤنهم وخيلهم وعُددهم كلها من عنده، وفضلا عن ذلك فقد قرر بموافقة أشياخ الموحدين، أن يدفع

---

[1] – ابن القطان: نظم الجمان، ص179

[2] – مبارك بن محمد الميلي الجزائري: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم: محمد الميلي، المؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر، 1406هـ/ 1986م، (ج2/ 305)

[3] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج3/ 402)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لكل طالب من هؤلاء قرضاً يتجر به إسعافاً لهم، وصرف لكل منهم من مال المخزن قرضاً قدره ألف دينار، فتاجروا وأثروا، ولم يسترد منهم هذا القرض قط[1]،

وكان يشرف بنفسه على متابعتهم ومراقبته واختبار قدراتهم ومدى استيعابهم لبرنامج التعليم الذي سطره لهم، ولا يكل ذلك لأحد من أعوانه، فكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعاً لهم على الاجتهاد، ولكي يجعل منهم رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب، وفي أيام أخرى كان يمتحن تدريباتهم العسكرية، فيختبرهم في الطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدّها، ووضع فيها سفناً كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر وقيادة السفن والوثب على سفن العدو، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه[2].

فلما أكمل تأديبهم على ما أراد عزل بهم أشياخ الموحدين، وقال لهم العلماء أولى منكم، فسلموا لهم الأمر، وظهر من أبنائه ثلاثة عشر ولدا على تلك الصفات، فأشار عليه أشياخ الموحدين بتقديمهم للأعمال، فتظاهر بالامتناع حتى ألحوا عليه فولاهم على الأقاليم، وذلك سنة 549هـ/ 1154م[3]، واستبقى الأشياخ لمشورته، وندب كثير من أولئك الحفاظ لأعمال الإدارة والرياسة، في كثير من القواعد الأندلسية

---

[1] – المرجع نفسه، (ج3/ 403)

[2] – الصَّلاَّبي عَلي محمد محمد: دولة الموحدين، دار البيارق للنشر، عمان، (ص: 120)، أشباخ يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، (ج2/ 50)

[3] – مبارك الميلي:تاريخ الجزائر في القديم والحديث (ج2/ 305)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المفتوحة، وأصبحوا يشغلون حيزاً كبيراً في أعمال الولاية والرياسة، في أنحاء الدولة الموحدية[1].

ويعتبرها البعض بمثابة مدرسة لتخريج الإطارات، حيث أشرف الخليفة بنفسه وبأعيان العلماء من أعوانه على انتقاء أنجب الطلبة والحفاظ، ووضع لهم منهاج دراسي فيه المبادئ والبرامج والأهداف المسطرة والمدة الزمنية المستغرقة، لكن الملاحظة العامة على هذا البرنامج أنه البرنامج نفسه الذي وضعه ابن تومرت وتكون به عبد المؤمن بن علي وسائر طلبة ودعاة الموحدين، لا يكاد يحيد عنه إلا في بعض التفاصيل والإضافات وبعض التعديلات في إطار التحسينات، بينما يرى البعض الآخر بأن ما قام به عبد المؤمن يعتبر مدرسة لتخريج رجال السياسة، وموظفي الحكومة، وقادة الجيش، ورأى أنه من الحزم والفطنة أن يضع للدولة نظماً موطدة الدعائم، فأطلق حرية العلوم والمعارف، وسار في كل ذلك مع نهج الدين الحنيف، وبنى عدداً من المساجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم والآداب، وقرنها بالخدمة العسكرية دوماً، مع التمرين على فنون الحرب، لأنه كان يخشى أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضعاف الهمم، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين[2]، وكان يشرف على مجالس العلم بنفسه ويختبر العلماء، ويحكى أنه سأل أصحابه عن مسألة ألقاها عليهم فقالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا فلم ينكر ذلك عليهم[3].

---

[1] – عنان:دولة الإسلام في الأندلس (ج3/ 403)

[2] – الصَّلاَّبي: دولة الموحدين، (ص: 119)

[3] – الصفدي: الوافي بالوفيات (ج19/ 157)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما كان في بعض الأحيان يختبر ما عند العلماء من العلوم، وخاصة علم العقائد الذي اشتهر عن الموحدين الخوض فيه، فمن بين العلماء الذي جرى اختبارهم أبو شعيب أيوب بن سعيد السارية الصنهاجبي الأزموري [561هـ/ 1165م] قدم مراكش سنة 541هـ/ 1146م بإشخاص عبد المؤمن بن علي واختباره في عقائده[1].

ج/ التعليم في المرحلة الثانية –عهدي أبي يعقوب يوسف وأبي يوسف يعقوب المنصور-

ا/ التعليم في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

1/ نشأته العلمية في حاضرة إشبيلية

تأدب أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وفق البرنامج الذي سطره له والده، فتخرج من مراكش حافظاً للقرآن متمكناً من الحديث، حتى قيل إنه كان يحفظ صحيح البخاري، وكان في نفس الوقت بارعاً في الفقه[2]، ثم اختار له والده إشبيلية ليكون واليا عليها وهو في الثامنة عشرة من عمره، وذلك منذ سنة[551هـ/ 1156م] إلى وفاة أبيه سنة [558هـ/ 1163م] فاستدعى ليتولى الخلافة من بعده، وفي هذه الأعوام الثمانية التي قضاها في مدينة إشبيلية اكتمل تكوينه الأدبي بها وبرع في النحو والأدب، حيث تلقى بها علوم اللغة على شيخها الأستاذ اللغوي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف بابن ملكون، في هذا الظرف الذي أصبحت فيه المدينة منذ

[1] – أبو شعيب أيوب بن سعيد السارية الصنهاجبي الأزموري [561هـ/ 1165م]من بلد أزمور كان يعلم الصبيان ببيسكاون من دكالة بلد شيخه توفى بأزمور، ابن الزيات التادلي: التشوف، رقم62، ص187- 191+185، والهروي التادلي: المَعْزَى، ص20، 22، 23، 24

[2] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 135)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اضمحلال قرطبة عاصمة الأندلس الفكرية والأدبية، فتفتحت مواهبه العلمية والأدبية، وكانت إشبيلية يومئذ مجمع أقطاب اللغة والعلوم الدينية منذ عهد الموحدين، فقضى أبو يعقوب زهرة فتوته بها، وبعد أن تولى الخلافة أخذه الحنين إليها من جديد وعاد إلى إشبيلية في جوازه الأول إلى الأندلس، وأقام بها زهاء خمسة أعوام أخرى، وانفتحت قريحته على العلوم العقلية وانفتقت مواهبه العلمية وجنح لدراسة الفلسفة والطب[1].

2/ تخصصه العلمي والأدبي

لم يقتصر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في تكوينه على البرنامج الرسمي الموحدي وحده كما سبق وأشرنا، بل تعداه إلى انفتاح على تكوين آخر تلقاه بإشبيلية وأظهر اهتمامات بعلوم جديدة، فصار من أكابر علماء عصره، فلم يكتف بدراسة اللغة والأدب فقط بل صار أديباً متمكناً[2]، عارفا باللغة واللسان العربي، بليغا شاعرا وقد وصفه الشقندي في كتاب ظرف الظرفاء بالشعر والأدب وعلم المنطق[3]، فكان أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بإشبيلية واليا عليها في حياة أبيه، ولقي بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن، فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه، كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية...وله مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة، وتبحر

[1] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 135)

[2] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 646)

[3] – الصفدي: الوافي بالوفيات (ج29/ 113)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في علم النحو، وكان يحفظ أحد الصحيحين إما البخاري أو مسلم، حَفِظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن، مع ذكر جمل من الفقه، ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة، فجمع كثيرًا من أجزائها، وبدأ من ذلك بعلم الطب، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره،... ثم تطلع لأنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها؛ فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي[1]، قال أبو محمد عبد الملك الشذوني- وهو أحد المتحققين بعلمي الطب وأحكام النجوم-: كنت في شبيبتي أستعير كتب هذه الصناعة -يعني: صنعة الأحكام- من رجل كان عندنا بمدينة إشبيلية، اسمه يوسف، يكني: أبا الحجاج يعرف بـــالمراني[2]، كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس[3]، فكان يعيرني إياها في غرائر: أحمل غِرارة وأجيء بغرارة؛ من كثرتها عنده، فأخبرني في بعض الأيام أنه عدِم تلك الكتب بجملتها، فسألته عن السبب الموجب لذلك، أسر إليَّ أن خبرها أُنهي إلى أمير المؤمنين، فأرسل إلى داري وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك؛ وكان الذي أرسل كافور الخصي[4] مع جماعة من العبيد الخاصة، وأمره ألا يروع أحدًا من أهل الدار، وألا يأخذ سوى الكتب، وتوعده والذين معه أشد الوعيد إن نقص أهل البيت إبرة فما فوقها، فأخبرت

---

[1] - أنظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، (ج8/ 240)، الصفدي: الوافي بالوفيات، (ج13/ 74-75)، والسيوطي: بغية الوعاة، (ج2/ 269)

[2] - أبو الحجاج يوسف المُرَاني: من أهل مدينة شريش من جزيرة الأندلس، من كتاب الجيش عند الموحدين، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: 229)

[3] - عبد الواحد المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (ص: 175)

[4] - أنظر:عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: 180)، والذهبي: تاريخ الإسلام، (ج40/ 320)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بذلك وأنا في الديوان؛ فظننته يريد استصفاء أموالي، فركبت وما معي عقلي، حتى أتيت منزلي، فإذا الخصي كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج إليه، فلما رآني وتبين ذعري قال لي: لا بأس عليك! وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلم علي، وأنه ذكرني بخير! ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي؛ ثم قال لي: سل أهل بيتك هل راعهم أحد أو نقصهم شيء من متاعهم؟ فسألتهم، فقالوا: لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شيء، جاء أبو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرات، فأخلينا له الطريق، ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها، فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع، وولوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب[1].

كان اهتمامه بجمع الكتب في شتى التخصصات العلمية، ووضعها في مكتبة ضخمى تحت إشراف مسيرين، وفي متناول طلبة العلم والباحثين، يكاد يكون خروجا عن المألوف في ميدان التعليم عند الموحدين، فقد علمنا أنهم لم يكونوا يقدموا شيئا في برامجهم عن علوم المهدي ومؤلفاته التي وضعها لهم، وأصبحنا نرى هذا الخليفة أكثر انفتاحا على سائر العلوم والمذاهب، ولم يقتصر في برنامجه التعليمي على علوم المهدي فقط.

3/ مجالس العلماء في عهده- الأطباء والفلاسفة-

لم يكتف أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بدراسة الفلسفة والطب فقط، بل أظهر اهتماما بكل من كان له علم بهما وبغيرهما، فشرع في البحث عن العلماء -وخاصة أهل علم النظر- فاجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب، وحظي

[1] - عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه (ص: 176)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بشرف صحبة ثلاثة منهم لم يجتمع مثلهم في عصر سبقه وهم: (طبيبه الخاص الفيلسوف العلامة أبو بكر بن طفيل الوادي آشي[1]، وتلميذه القاضي الفيلسوف أبو الوليد بن رشد[2]، والطبيب العبقري أبو بكر بن عبد الملك بن زهر[3])[4].

وكان مؤطرا لهؤلاء العلماء مستعينا بهم، أما أبو بكر بن الطفيل مثله مثل سائر العلماء يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخَدَمة، من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد، إلى غير هؤلاء من الطوائف، وكان يقول: لو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم! وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له؛ بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أيامًا ليلًا ونهارًا لا يظهر[5]، وكان الخليفة نفسه يملازمه ولا يصبر على فراقه[6]، وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار، وينبه على أقدارهم لديه، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم[7]

---

[1] – أنظر: ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، (ج2/ 85)، ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (ج1/ 309)

[2] – أنظر: اليافعي مرآة الجنان، (ج3/ 479)، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص554، وابن الأبار:التكملة، ج2، ص554، وابن أبي أصيبة:عيون الأنباء ج3، ص122، وابن سعيد: المغرب ج1، ص62-63، ومخلوف محمد بن محمد: شجرة النور الزكية، ص146

[3] – أنظر:ابن خلكان: وفيات الأعيان، (ج4/ 434)، واليافعي: مرآة الجنان (ج3/ 479)، وعمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، (ج3/ 61)

[4] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 135- 136)

[5] – عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: 176-177)

[6] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 136)

[7] – المرجع نفسه، نفس الجزء والصفحة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

***-أشهر المؤلفات الفلسفية رواجا في عهده:**

ومن المصنفات التي لقيت رواجا في هذا الميدان، مصنفات هؤلاء العلماء الأندلسيين، ومنها مؤلفات أبو بكر محمد بن طفيل في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك، منها رسالة حي بن يقظان، ورسالة في النفس[1].

وتؤكد الروايات بأنه لم يقتصر على جمع الكتب فقط بل استعان في ترجمة كتب الفلاسفة القدامى بالفيلسوف أبي الوليد بن رشد الحفيد، وحمله على القيام بتلخيص شروح أرسطو[2]، وهو الذي قال: استدعاني أبو بكر بن طفيل يوما فقال لي سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه ويقول لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل وإني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه، فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس[3].

ولم يكتف بذلك فقط، بل كان يخوض في غوامضها قال ابن رشد: فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي: ما رأيهم في السماء يعني الفلاسفة أقديمة هي أم حادثة، فأدركني الحياء والخوف...

---

[1] – عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: 176-177)

[2] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 136)

[3] – عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: 178-179)، الصلابي: دولة الموحدين (ص: 140)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها ويذكر ما قاله أرسطوطاليس[1] وأفلاطون[2] وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له[3].

***-أشهر المؤلفات الطبية تداولا في عهده**

من أشهر المؤلفات الأكثر تداولا في عهده في هذا الاختصاص، مؤلفات العلماء الذين كانوا في بلاطه كمؤلفات أبي بكر بن عبد الملك بن زهر، ومنها "التيسير في المداواة والتدبير" و"الأغذية" و"الجامع" في الأشربة والمعجونات[4]، وقد أكرمه أبو يعقوب يوسف واستدعاه وبنى له بيتا في مراكش على شكل بيته الذي في إشبيلية وجلب أهله إليه، حيث أرسل المهندسين إلى إشبيلية -من غير علم من ابن زهر- وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة، وفرشها بمثل فرشه وجعل فيها مثل آلاته، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار، ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيوته وحارته فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك

---

(1) -أنظر:ابن العديم: بغية الطلب، (ج3/ 1341)

(2) -أنظر: جمال الدين القفطي: أخبار العلماء، (ص:20-21)

(3) - الذهبي: تاريخ الإسلام (ج40/ 319-320)

(4) - الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس: الأعلام، دار العلم للملايين، ط5، 2002م، (ج6/ 250)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحلام، فقيل له ادخل البيت الذي يشبه بيتك فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه[1].

ومنها مؤلفات ابن رشد الحفيد التي تزيد عن الستين، ومنها كتاب الكليات في الطب الذي ترجم في بلاد أوروبا[2].

وكان يعطي الجوائز ويكافئ العلماء إذا أعجب بما عندهم، قال ابن رشد: ولم يزل يبسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك، فلمّا قمت أمر لي بخلعةٍ ودابّةٍ ومال[3].

4/ اجتهاده ومؤلفاته:

بلغ أمير المؤمنين درجة الاجتهاد فكان يتكلّم في مذاهب الفقهاء فيقول قول فلانٍ صواب، ودليله من الكتاب والسنة كذا وكذا، فيتابع على ذلك[4]، ولمّا تجهّز لحرب الروم أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملى على الموحّدين ليدرسوا، ثم كان هو يملي بنفسه عليهم، فكان كلّ كبير من الموحّدين يجيء بلوح ويكتب[5]، وقد

---

[1] – السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري/ محمد الناصري، دار الكتاب-الدار البيضاء، 1418هـ/ 1997م، (ج2/ 202)

[2] – اليافعي: مرآة الجنان، (ج3/ 479)، ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص554، ابن الأبار: التكملة، ج2، ص554، ابن أبي أصيبة: عيون الأنباء ج3، ص122، ابن سعيد: المغرب ج1، ص62-63، مخلوف محمد بن محمد: شجرة النور الزكية، ص146

[3] – السلاوي:المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة

[4] – الذهبي: تاريخ الإسلام، (ج40/ 322)

[5] – المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

انتهى إلينا من آثاره كتابه في "الجهاد" وهو الملحق بكتاب المهدي ابن تومرت[1]، يورد فيه طائفة كبيرة من الأحاديث التي وردت في فضل الجهاد في سبيل الله، والحث عليه، وتبيان محاسنه، ويلحق بذلك الكلام عن الجهاد ببذل المال وما ورد فيه أيضاً من الأحاديث وما يتسم به من الفضائل،... وتاريخ الانتهاء من وضعه، وهو العشر الأواخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة أي قبيل وفاته بنحو تسعة أشهر[2].

5/ نظام التعليم في عهده:

استمر التعليم في عهده حسب النظام الذي وضعه ابن تومرت ثم عبد المؤمن بن علي، حسب ما يقول ابن صاحب الصلاة: (ووعظ الشيخ المرحوم الموحدين أجمع على طبقاتهم مراتبهم، وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم، وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً بالوفاة، واشتد عليهم في لزوم الصلاة والضرب، بالسياط أهل الفسق والجناة، وشغلهم بأنفسهم من الحديث بالخزعبلات، وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح بقراءة الحزب، واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد واللزب[3].

لكنه طور كثيرا في برامجه، وأضاف إليه الكثير من العلوم التي كانت تلقى رواجا في الأندلس دون المغرب، ومنها علوم الفلسفة والطب، وقد استعان في ذلك بكبار علماء الأندلس الذين أسلفنا ذكرهم.

---

[1] – عنان:دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 646)

[2] – المرجع نفسه، (ج4/ 137)

[3] – ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص232، والصلابي: دولة الموحدين (ص: 142)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اا/ التعليم في عهد يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي

لا يختلف أبو يعقوب المنصور في تكوينه عن الخلفاء الذين سبقوه، فقد تأدب ببرنامج أبيه السالف الذكر، فبرع في علوم الشريعة واللغة، فكان عالما بالحديث والفقه واللغة[1]، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ متون الأحاديث، ويتكلم في الفقه والأحكام كلاماً بليغاً، ويناظر ويباحث، وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتاوى والمشكلات وله فتاوى مجموعة[2]، وله شعر جيد وموشحات مشهورة[3]، منها موشحات حسنة عملها في جارية له كان يهواها تسمى ساحر[4]، فلم يحتج مساره العلمي والتعليمي إلى تعديل كبير، فسار على نهج سابقيه، وصنف كتاب الترغيب في الأحاديث التي في العبادات، وكانت له آراء وفتاوى ومن فتاويه: حضانة الولد للأم ثم للأب ثم للجدة، واليمين على المنكر ولا ترد على المدعي بحال، من نكل عن اليمين حُكم عليه بما نكل عنه، والشفعة لا تنقطع إلا بتصريح من الذي يجب له إسقاطها، من أدعى العدم وأشكل أمره، وخير طالبه بين أن يخلي سبيله، وبين أن يحبسه وينفق عليه[5].

---

(1) – ابن أبي زرع علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تح:عبد الوهاب بنمنصور، ط2، 1420هـ/ 1999م، ص 284-285

(2) – الذهبي: تاريخ الإسلام (ج42/ 221)

(3) – المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة

(4) – الصفدي: الوافي بالوفيات (ج28/ 106)

(5) – الذهبي: تاريخ الإسلام (ج42/ 221)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1/ جمعه للعلماء حوله ومجالستهم:

كان مثل أبيه وجده، يجمع حوله العلماء والأدباء والشعراء من المغرب والأندلس، ويجزل صلتهم، وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم[1]، وأكرم الفقهاء وراعى الصلحاء والفضلاء، وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال[2]، وكانت أكثر مجالسه المرتبة بحضور العلماء والفضلاء، يفتتح في ذلك بقراءة القرآن، ثم يقرأ بين يديه قدر ورقتين أو ثلاث من الأحاديث النبوية، وربما وقع البحث في معانيها، ثم يختم المجلس بالدعاء، فيدعو هو، وكذا كان يدعو عند نزوله من الركوب، ثم ينزل فيدخل قصره[3]، وألف له أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتاب صفوة الأدب وديوان العرب في مختار الشعر[4].

قال تاج الدين عبد السلام بن حمويه الصوفي: دخلت مراكش في أيام السيد الإمام أبي يوسف يعقوب، ولقد كانت الدولة بسيادته مجملة، والمحاسن والفضائل في أيامه مكملة، يقصده العلماء لفضله، والأغنياء لعدله، والفقراء لبذله، والغزاة لكثرة جهاده، والصلحاء والعامة لتكثير سواده وزيادة إمداده، والزهاد لإرادته وحسن اعتقاده[5].

---

[1] – ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 286

[2] – ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 284-285

[3] – الذهبي: تاريخ الإسلام (ج42/ 221)

[4] – الصفدي: الوافي بالوفيات (ج28/ 100)

[5] – الذهبي: تاريخ الإسلام (ج42/ 220)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2/ تطور عقيدة الموحدين في عهده

كان له بتمكنه من الفقه دور فعال في تطور العقيدة الموحدية وجنوحها إلى المذهب الظاهري[1]، بل كان له انقلاب في المذهب والعقيدة الموحدية[2]، واستطاع أن يصلح بعض الانحرافات العقدية عند الموحدين[3]، يقول عبد الواحد المراكشي: خرج أمير المؤمنين أبو يوسف إلى تينمل للزيارة ومعه الغز، فقعدوا تحت شجرة خروب مقابلة للمسجد؛ وقد كان ابن تومرت قال لأصحابه فيما قال لهم ووعدهم به: لِيُبصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها! فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليوم في تينمل يومًا عظيمًا؛ اتصل التكبير من كل جهة، وجاء النساء يُوَلْوِلْنَ ويضربْنَ بالدفوف، ويقلْنَ ما معناه بلسانهم: صدق مولانا المهدي! نشهد أنه الإمام حقًّا!، فأخبرني من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفافًا لعقولهن؛ لأنه لا يرى شيئًا من هذا كله، وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت، وأخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري[4] ونحن بحِجْر الكعبة قال: قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس، اشهد لي بين يدي الله عز وجل أني لا أقول بالعصمة -يعني عصمة ابن تومرت-، قال: وقال لي يومًا وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس، أين الإمام...؟ أين الإمام...؟، أخبرني شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جيان

---

(1) - عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 646)

(2) - المرجع نفسه، (ج4/ 239)

(3) - الصلابي: دولة الموحدين (ص: 162)

(4) - أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أحمد الأنصاري المقرئ يعرف بابن السقاء: من أهل المرية، ابن الأبار: التكملة، (ج1/ 48)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من جزيرة الأندلس، يسمى أبا بكر بن هانئ، قال لي: لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرك -وهي التي أوقع فيها بالأدفنش وأصحابه- خرجنا نتلقاه؛ فقدمني أهل البلد لتكليمه، فرفعت إليه، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله -على ما جرت عادته- فلما فرغت من جوابه، سألني كيف حالي في نفسي؛ فتشكرت له ودعوت بطول بقائه؛ ثم قال لي: ما قرأت من العلم؟ قلت: قرأت تواليف الإمام -أعني ابن تومرت- فنظر إلي نظرة المغضب، وقال: ما هكذا يقول الطالب! إنما حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت شيئًا من السنة؛ ثم بعد هذا قل ما شئت[1].

والمنصور لم يكن من الغلاة في تصوير إمامة المهدى، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته[2]، وصرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت[3]، وهو تطور كبير وتعديل جرئ حصل في مذهب الموحدين، الذين كبلتهم عقيدة المهدية التي طغت على نهج الدولة وتسببت لهم في متاعب جمى، وهو اتجاه تبلور فيما بعد، واتخذ على يد خلفائه صورته العملية[4].

3/ تطور مذهب الموحدين الفقهي في عهده

لقد تميز أبو يعقوب المنصور بموقف خاص من كتب فقه الفروع المالكية، وكيف لا وهو لم يهادن عقائد الموحدين في إمامهم ابن تومرت نفسه، ولذلك ناصر الاجتهاد والعودة بالفقه إلى أصوله ومصادره من الكتاب والسنة، بدل النهج الذي

[1] - عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: 211-212)

[2] - عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 241)

[3] - الصلابي:دولة الموحدين (ص: 159)

[4] - عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 241)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سار عليه فقهاء المالكية باعتماد أقوال الفقهاء المعتمدين في المذهب، دون ذكر أصلوهم التي اعتمدوا عليها وهو ما يعرف بفقه الفروع، فأمر بإحراق كتب المذهب-المالكي- بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدوَّنة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة[1]، في أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، قال أبو بكر بن الجد: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دَخْلَة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لي: يا أبا بكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله؛ أرأيت يا أبا بكر، المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا؛ فأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك؛ فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر، ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه، أو السيف![2]، ومنع من يفتي بفروع الفقه، وأن لا يفتى أحد إلا بالكتاب والسنة، وأن تجتهد الفقهاء على طريقة أهل الظاهر[3]، وحمل الناس على التشاغل بالأثر ثم عزم عليهم في الجهر بالتسمية في أول الفاتحة، وكان قد عزم على علماء زمانه أن لا يقلدوا أحدا من الأئمة الماضين، بل تكون أحكامهم بما ينتهي إليه اجتهادهم[4].

---

[1] – عبد الواحد المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: 202-203)

[2] – المصدر نفسه، (ص: 204)

[3] – الصفدي:الوافي بالوفيات، (ج28/ 99)

[4] – ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب (ج4/ 321-322)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فكانت له بصمات في إحياء الاجتهاد، وبعث العمل بنصوص الكتاب والسنة المصادر الأولى للفقه الإسلامي، فكان هذا مساهمة جادة في إصلاح مناهج التعليم التقليدية، لكن لا يبدو أن الوقت كان في صالحه، إذ بمجرد وفاته عاد الفقهاء المالكية إلى نهجهم السابق وعدلوا عن نهجه.

4/ تطور علم القرآن والحديث في عهده

كان موقفه المعادي لكتب فروع الفقه والرأي، كفيلا بأن يجعله أكثر إقبالا على الأصول بمجرد نبذ الفروع، فالعودة إلى الأصول هي البديل الحتمي، مما جعله يحمل الناس على التشاغل بالأثر[1]، وكان من آثار هذا الاتجاه أن ازدهر علم الحديث في عهده، وحظي طلابه بمنتهى التشجيع والرعاية[2]، وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صِيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة[3]، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة: الصحيحين، والترمذي، والموطأ، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن شيبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها، على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة؛ فأجابوه إلى ذلك، وجمعوا ما أمرهم بجمعه؛ فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه؛ وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب، وحفظه الناس

---

[1] – الذهبي: العبر في خبر من غبر، (ج3/ 113)

[2] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 241)

[3] – عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص202)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من العوامِّ والخاصة، فكان يجعل لمن حفظه الجُعل السني من الكُسا والأموال[1]، ونال عنده طلبة العلم -أعني علم الحديث- ما لم ينالوا في أيام أبيه وجده؛ وانتهى أمره معهم إلى أن قال يومًا بحضرة كافة الموحدين يُسمعهم -وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخَلْوته بهم دونهم-: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل؛ فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته؛ وهؤلاء -يعني الطلبة- لا قبيل لهم إلا أنا؛ فمهما نابهم أمر فأنا ملجَؤُهم، وإلي فزعهم، وإلي ينتسبون! فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم، وبالغ الموحدون في برهم وإكرامهم[2]، وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء، تفتح بالتلاوة ثم الحديث، ثم يدعو هو، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحاً، مهيباً، صنف في العبادات، وله "فتاوٍ"[3]

فقد أحيا بنهجه هذا دراسة كتب السنة وبعثها من جديد، وأمر بنسخها ووضعها في متناول طلبة العلم، وشجع على دراستها بمختلف المنح والجوائز.

5/ تأديبه لبنيه:

يبدو أن الدولة الموحدية في عصره لم تدخل مرحلة التخلص من مذهب ابن تومرت العقدي فحسب، بل ربما بدا له بأن الثقة بعلماء عصره قد نقصت، وخاصة إذا تعلق الأمر بتعليم أبنائه، لذلك لم يوكل لغيره أمر اختبار المؤدبين لأبنائه وتولى ذلك بنفسه، فطلب يوما من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين: من تعليم ولد، وضبط

---

[1] - المصدر نفسه، (ص203-204)

[2] - المصدر نفسه، (ص204)

[3] - الصلابي: دولة الموحدين (ص: 163)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمر، فعرّفه برجلين، قال في أحدهما: هو برّ في دينه، وقال في الآخر: هو بحر في علمه، فاختبرهما السّلطان بنفسه فقصّرا بين يديه وأكذبا الدعوى، فكتب على رقعة القاضي التي سيّرها معهما بتعريفهما: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم{(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)[1]}[2].

إذا كان القاضي قد فشل فاختيار الرجل المناسب للمكان المناسب، وهو الذي ائتمنه على حقوق الناس وأموالهم وأعراضهم، فهذا يعني أن الخليفة لم يكن يرضى أو يقنع بأي شخص بمجرد أن يقال عنه بأنه عالم، فله معايير أبعد من ذلك لا يعرفها إلا هو.

ج/ نظام التعليم في مرحلة ضعف وسقوط الدولة الموحدية

نجد حتى في أواخر الدولة الموحدية حينما شاخت وأدركها الوهن في الخلفاء الموحدين من اتسم بالصفات العلمية البارزة، فقد كان الخليفة إدريس المأمون بن المنصور[3] عالماً متمكناً من اللغة والأدب والشعر، وكان كاتباً مقتدراً، وكان الخليفة المرتضى لأمر الله، فقيهاً وأديباً وشاعراً، وكانت هذه الصفات العلمية للأواخر من الخلفاء الموحدين، تبرز على ما عداها، بالرغم مما كانت تتردى فيه الدولة، من الفتن والحروب الأهلية المتواصلة، وقد كان لهذه النزعة العلمية التي غلبت على معظم الخلفاء الموحدين، أثر كبير فيما جرت عليه الدولة الموحدية طوال أيامها، من رعاية

---

[1] -سورة الروم، الآية41

[2] - مقديش محمود :نزهة الأنظار، (ج1/ 467)، المقري: نفح الطيب (ج3/ 104)، الصفدي: الوافي بالوفيات (ج28/ 105)

[3] - أنظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، (ج8/ 209-210)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للعلماء والمفكرين من كل ضرب، وحشدها لأعلام الكتاب والمفكرين حول البلاط الموحدي، سواء في مراكش أو إشبيلية[1].

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن الخلافة الموحدية، تحملها هذه النزعة العلمية الأصيلة، قد جرت على سياسة إطلاق حرية البحث والتفكير، ولم تشذ الخلافة الموحدية عن هذا المبدأ الحر، إلا في أحيان قليلة، كان أهمها حادثان، هما اضطهاد العلامة الفيلسوف والطبيب اليهودي الرئيس موسى بن ميمون، ومحنة[2] العلامة الفيلسوف والطبيب أبي الوليد بن رشد[3].

بيد أنه بالرغم من هذا التنويه، بما كان عليه الخلفاء الموحدون من الصفات العلمية، ورعاية العلوم والآداب، وما جرت عليه الخلافة الموحدية من إطلاق حرية الفكر، يجب ألا ننسى حقيقة هامة، وهي ذلك الدور الفعّال الذي لعبته الأندلس، وهي يومئذ إحدى ولايات الإمبراطورية الموحدية الكبرى، في إذكاء الحركة الفكرية العامة بالغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي، وإذا تركنا جانبا ما كان يحشده البلاط الموحدي حوله، من أعلام الكتاب الأندلسيين، فإن تقاطر العلماء على اختلاف طوائفهم باستمرار من شبه الجزيرة الأندلسية إلى العدوة، واستقرار الكثير منهم بالحاضرة الموحدية، أو بغيرها من قواعد المغرب، وعبور الطلاب والعلماء المغاربة من جهة أخرى إلى الأندلس، للدراسة بمعاهدها في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية

---

[1] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 646)

[2] – أنظر: الذهبي: تاريخ الإسلام (ج42/ 223- 224)

[3] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 647)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومرسية، كان له أكبر الأثر في ازدهار الحركة الفكرية، بقطري المغرب والأندلس معا، ولما انهار سلطان الموحدين بالأندلس، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى، تسقط تباعا في أيدي النصارى، عبر كثير من علماء الأندلس، من أبناء القواعد الذاهبة، إلى ثغور إفريقية وقواعدها، ولاسيما تونس وبجاية وتلمسان، وقامت في شمال إفريقية في أواسط القرن السابع الهجري، حركة فكرية وأدبية زاهرة، ومن ثم فإنه من الواضح، إزاء ذلك كله، أن الحركة الفكرية في الغرب الإسلامي، كانت خلال العصر الموحدي تجوز، سواء بالمغرب أو الأندلس[1].

وقد أجرى الخلفاء الموحدون تعديلات كبيرة على برنامج ابن تومرت التعليمي في هذه الفترة، حيث أنهم رفضوا ما كان خارجا عن مذهب أهل السنة وقبلوا ما كان موافقا له، وهذا فيما يتعلق بآرائه في الإمام والعصمة وغيرها، فإن تأثيرها على مسار الفكر بالمغرب الإسلامي ظل مغمورًا وباهتًا، حتى رفض الساسة من دولته هذه الأفكار وتمردوا عليها أمثال المنصور والمأمون والرشيد، وصرحوا برفضهم للقول بالمهدوية والعصمة، وظلت عملية الرفض والإنكار متوالية في أوساط الساسة والمفكرين الكبار حتى صار الحكم على ابن تومرت بالضلال بداهة

[1] – عنان: دولة الإسلام في الأندلس (ج4/ 647)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عند أشاعرة الغرب الإسلامي، وعلى الرغم من صغر حجم عقيدة المرشدة[1]، فإنها لاقت اهتمامًا كبيرًا في الوسط الأشعري لأنهم كانوا يرونها عقيدة تعكس أشعرية المهدي بن تومرت، فقد أجمعت الأئمة على حب هذه العقيدة، وإنها مرشدة رشيدة ولم يترك المهدي أحسن منها فتهافت العلماء بعده على شرحها.

[1] – أبو عبد الله محمد بن خليل السكوني: شرح مرشدة ابن تومرت، تح: يوسف أحنانة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1993م، عمر السكوني، عيون المناظرات، تح: سعد غراب، تونس، منشورات الجامعة التونسية، 1976م.ص:290.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com